

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

نرید إرثا تاریخیا نقیا لا تخالطه نوازع.. ولا
توجهه رغبات.. ولا تفسره انتماءات..

كلمة أولى...

الناس يقرأون التاريخ، لكن بعضهم يقرأه من باب العلم بالشيء وبعضهم يقرأه وهو كافر به، وبعضهم الآخر مستسلم له. للتاريخ عبر قد لا ندركها. ولأننا نهمل دروس التاريخ ولا نستوعبها فإننا نبدأ من الصفر دائماً، ثم نعود إليه لنبدأ منه، أو دونه أحياناً!

إن أحداث هذا البحث ثابتة في سجل الزمن.. وقد قرأنا عنها فوجدناها متغيرة متلوّنة، وكان واضحاً لنا أن التغيير والتلون هما بسبب الرواة وبعض الكتاب، أما الرواة فمن المحتمل أن يكون بعضهم قد شارك في صنع الأحداث، وبالتالي فروايتهم لها أقرب إلى الدقة، لكن في كثير من الأحيان يروي المرء ما كان يتمنى أن يحدث لا ما حدث فعلاً، فيكون هناك بعض التجميل أو شيء من التعظيم.

كما قد يكون بعض من صنع الأحداث راغباً في تحريفها طمسا لبعض حقائقها، إما لتضليل الجمهور، أو تهرباً من المحاسبة التاريخية. كما أنه من المحتمل جداً أن يكون بعض المشاركين في الأحداث مجرد أداة، لذلك فهم حين يروون الأحداث تكون روايتهم عاطفية انفعالية تبعد عن جوهر الحقيقة. أما الكتاب فمن خلال قراءتنا للعديد من الكتب التي تناولت البحرين، وجدنا أن هناك اختلافات كبيرة جداً في سرد بعض الأحداث، وليس هذا فحسب، بل إننا وجدنا كتاباً لوّنا الأحداث بلون ميولهم السياسية في فترة كتابتهم، كما وجدنا بعضهم متأثراً جداً بلون مصادر بحثه الأساسية.

لقد وجدنا أن بعض كتاب التاريخ البحريني يعمدون إلى قياس الأمور، لا بمقياس عصرها بل بمقياس زمن الكتابة، ولا شك أن هذا يسبب خللاً كبيراً قد يترتب عليه انحراف الفهم.

إن إطلاق الأوصاف على الحدث هو من صنع الكتاب، ولا نرى

ثمة مبررا للالتزام بتلك الأوصاف، فللقارئ الحرية في الفهم والتحصيل من دون وصاية.

إننا نعتقد أن لدينا أفكارا جديدة، أو قد تكون رؤى متحررة من الموروث التاريخي والانتماء السياسي، ولا نرى بأسا على الإطلاق في طرح أفكارنا علانية من خلال هذا البحث، وللقارئ طبعاً الحق في رفضها أو قبولها، أو في رفض بعضها وقبول بعضها الآخر. كل ما نريد هو ألا يقرأ بحثنا هذا وهو كافر به أو مستسلم له.

إن في بحثنا هذا محاولة تمرد على قوالب وأنماط فكرية، صنعها غيرنا ودفعنا بسببها إلى اعتماد التفكير الأحادي.

إننا نريد أن نعرض إرثنا تاريخياً نقياً، لا تخالطه نوازع، ولا توجهه رغبات، ولا تفسره انتماءات.

ولهذا يأتي هذا البحث الذي هو ببساطة إعادة لقراءة جانب من تاريخ البحرين، فإن وجدتم أن البحث قراءة ملونة بأهوائنا فاتركوه.

يركز البحث على «حركات التفاعل السياسي» في البحرين في الفترة من عام ١٩٠٤ حتى نهاية عام ١٩٥٦. ونحن، إذ نستخدم مصطلح التفاعل السياسي، فإننا نهدف إلى تجنب إصدار حكم مسبق على أي حركة من خلال إسباغ أوصاف ذات إيحاء معين.

وسوف نحاول قدر الإمكان أن نورد الروايات المتاحة عن كل الحركات التي يمكن اعتبارها تفاعلاً سياسياً، وسنحاول تحديد أهداف كل حركة، وندقق في أسلوب التفاعل، ثم نقوم النتائج.

هذا وقد رأينا لحسن العرض أن نبدأ البحث بتمهيد، نلخص فيه بداية حكم آل خليفة للبحرين، ثم نقوم بعد ذلك باستعراض حركات التفاعل السياسي وفق تسلسلها الزمني، لنهني بحثنا بكلمة أخيرة تتضمن بعض الأفكار والآراء التي نتبناها.

والله الموفق

إن هاجس الخطر الخارجي كان يقلق
آل خليفة منذ بدء حكمهم للبحرين

مقدمة

في عام ١٧٨٣ بدأ حكم آل خليفة في البحرين، واستقر حكم هذه الجزيرة لهم منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا. ولم تكن سيطرة آل خليفة على البحرين مصادفة تاريخية دفعت إليها ظروف مناخية أو معيشية كقحط أو غيره، كما لم يكن دخولهم البحرين لجوءاً أو هرباً أو احتما، كما لم يكن بحثاً عن مصدر رزق أو إعاشة.

وتختلف ظروف دخول آل خليفة إلى البحرين عام ١٧٨٣ تمام الاختلاف عن ظروف نزوحهم مع أبناء عموماتهم آل صباح من نجد كما تختلف أيضاً عن ظروف هجرتهم من الكويت، واستقرارهم في الزبارة مع بعض عشائر العتوب عام ١٧٦٢.

وآل خليفة هم قسم من العتوب، الذين ينتسبون إلى قبيلة عنزة وكان مقرهم في نجد، وطبقاً للشيخ عبدالله بن خالد ود. علي أبا حسين فقد حل عام ١٦٦٥ «قحط عظيم يسمى صلها، هلك فيه عدد كبير من الناس والدواب، واستمر عامين»، وعلى إثر هذه الظروف المعيشية القاسية هاجر العتوب - آل خليفة وآل صباح وغيرهم - من نجد وقصدوا الساحل الغربي للخليج، فلبثوا قليلاً في الإحساء، ثم رحلوا إلى موقع قرب الزبارة. وواصل العتوب تنقلهم، حيث وصلوا إلى رأس تنورة ومكثوا قرب الفاو، ثم في الصبية شمال شرقي الكويت واستقر بهم المقام في الكويت بعيد عام ١٧٠٠. هذا وتشير بعض الروايات إلى أن العتوب خلال هجرتهم بحثاً عن مستقر لهم مروا بالبحرين، لكنهم لم يستقروا بها. ويؤكد الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة ود. علي أبا حسين أن العتوب «تواجدوا في المنطقة قبل عام ١٧٠٠، وأنه طبقاً لوثيقة عثمانية خاض العتوب معركة ضارية لتحرير البحرين من العجم، وقد خسروا المعركة، وقتل منهم ٤٠٠، وتوجهوا

إثر خسارتهم نحو البصرة، وأنهم من المحتمل أن يكونوا قد نزلوا في قطر قبل ذهابهم إلى الكويت».

واللافت للنظر أن حركة تنقل العتوب، منذ مغادرتهم الإحساء إلى حين استقرارهم في الكويت، والتي استغرقت زهاء ثلاثين عاما، كانت حركة بحرية برغم كونهم بدوا خرجوا من بطن الجزيرة. ولا شك أن حركتهم البحرية هذه تنبئ بعلو الهمة واستعداد لمواجهة الأخطار، كما أن عدم استقرارهم في مناطق خاضعة خضوعا مباشرا لنفوذ قوى أخرى يؤكد تمتعهم بنزعة التفرد والاستقلالية، فضلا عن طموح الحكم.

وبعد ان استقر العتوب في الكويت، وبالنظر إلى الروابط التي تجمعهم، فقد تم الاتفاق بينهم على أن يتولى آل صباح شؤون الحكم فيما يتولى آل خليفة شؤون التجارة، ويتولى الجلاهمة شؤون البحر. وخلال استقرار آل خليفة في الكويت تحقق لهم قدر من الثراء. ويرى جون كيلى أن آل خليفة، وقبل هجرتهم الأولى من الزبارة إلى الكويت مع آل صباح، كانوا قد اكتسبوا مكانة مرموقة في الخليج كتجار وملاحين.

ولأسباب اختلف حولها المؤرخون قرر آل خليفة الهجرة من الكويت، وكان ذلك عام ١٧٦٢ على أرجح الأقوال. ونعتقد أن دوافع اتخاذ قرار الهجرة هي رغبة آل خليفة في إقامة كيان تكون السيادة فيه لهم وحدهم، من دون مشاركة طرف آخر.. وبمعنى آخر كان طموح الحكم لديهم قويا لم يشغلهم عنه نشاطهم التجاري.

ولعله من المهم هنا -لفائدة البحث- أن نورد حادثة رأى عدد من المؤرخين أنها السبب المباشر لهجرة آل خليفة من الكويت، ولهذه الحادثة مهما اختلفت تفاصيلها باختلاف رواياتها- دلالة واحدة تؤكد ما نذهب إليه بشأن طموح الحكم والنزعة الاستقلالية وصلابة الرأي وثباته.

فوفقا للشيخ الشيخ عبدالله بن خالد ود. علي أبا حسين حدث عام ١٧٦٢ أن ذهب أبناء الشيخ محمد بن خليفة إلى الدورق لجلب التمر إلى الكويت، فهاجمهم وسط النهر بعض قطاع الطرق من بني كعب، فقتل أبناء الشيخ محمد واحدا من المهاجمين، وفر الآخرون.. فأنت كعب إلى الشيخ عبد الله بن صباح تطالب بدم قتلها، فطلب الشيخ عبد الله إلى الشيخ محمد أن يسلم له أبناءه ليمشي بهم إلى كعب طلبا للصلح، فأبى الشيخ محمد، وقال للشيخ عبد الله إن بني كعب اعتدت على أبنائي الذين دافعوا عن أنفسهم فقتلوا واحدا منهم، فإذا هم -أي بنو كعب- أرادوا الدية فأنا مستعد أن أدفع لهم بدل الدية ديات، فاشتد الخلاف بينهما فقرر الشيخ محمد بن خليفة الهجرة من الكويت مع من آزره من عشائر العتوب.

أما الشيخ محمد علي التاجر* فيقول عن أسباب هجرة آل خليفة من الكويت «إنه في عام ١١٥٤ هجري غزا طهما سب شاه الفارسي البصرة، ووصل إلى الزبير والكويت فانتهبهما بعد أن حاربهما. ولما عاين خليفة وفاضل أبناء الشيخ أحمد ما نالهم من التعدي الممقوت من العجم أنفا الذل وكرها الإقامة في بلاد تنازلهما فيه أيدي الأعاجم فخطرت بهالهما الهجرة».

وإذا كان قرار هجرة العتوب -ومن بينهم آل خليفة- من نجد متأثرا بفعل عوامل معيشية بالدرجة الأولى، فإن قرار آل خليفة الهجرة من

(*) محمد علي التاجر: هو محمد علي بن سمان بن أحمد بن عباس التاجر، أديب وبخانة ومؤرخ من الطراز الأول وإليه يرجع كثير من كتاب التاريخ والبحوث خصوصا فيما يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية، لكن اختفت معظم بحوثه وكتاب «عقد اللآل في تاريخ آل».

فتح مكتبة تجارية أطلق عليها اسم المكتبة العباسية مع أخيه عباس التاجر، وهو أحد مؤسسي المدرسة الجعفرية عام ١٩٤٦. له دكان صغير معروف في الستينات لبيع الطوايع والعملات في سوق النمامة بأحد الطرق المتفرعة من شارع باب البحرين بالقرب من محل بوهندي بائع اللؤلؤ الشهير.

الكويت كان متأثراً بفعل عوامل أخرى، نرى أنها نزعة الاستقلالية وطموح الحكم. وسنلاحظ أن دخول آل خليفة إلى البحرين فيما بعد يختلف أيضاً في دوافعه وظروفه عن قرارهم الهجرة من نجد، كما يختلف عن قرارهم مغادرة الكويت.

إن فهم واستيعاب ظروف هجرة آل خليفة من الكويت، وكذلك ظروف دخولهم إلى البحرين أمر في غاية الأهمية، وله العديد من الدلالات والانعكاسات في التاريخ الحديث للبحرين. فبرغم مرور أكثر من مائتي عام على حكم آل خليفة، وتشابك المصالح وتعددتها وتنوعها، واختلاف الأحداث وتعدد أطرافها، فلا تزال هناك مجموعة من العناصر المشتركة التي يمكن ملاحظتها في موقف حكام البحرين منذ عهد الشيخ أحمد الفاتح* حتى يومنا هذا.

بعد مغادرتهم الكويت اتجه آل خليفة إلى الزبارة، وخلال أقل من عشرين عاماً نجحوا بإقامة كيان خاص في تلك المنطقة حيث أصبحوا قوة عسكرية، وكانت لديهم قوة اقتصادية، وأداروا شؤونهم باستقلالية تامة، ودانت لهم السيطرة، وبنوا الحصون والقلاع، وتغلبوا على خصومهم. كما نجحوا بتحويل الزبارة خلال فترة قصيرة، من بلدة فقيرة إلى غنية مزدهرة، وكان ذلك بفضل حسن الإدارة، وقوة العزيمة وسياسة الاستيراد والتصدير المتساهلة التي انعكست إيجاباً عليهم.

ويقول جون كيللي في هذا الصدد «وعلى حين يبدو القسم الشرقي من الساحل مخيباً للآمال، فإن الشمال الغربي من الجزيرة -ويقصد الزبارة- يقدم صورة أكثر إشراقاً، لسبب رئيسي هو وجود آل خليفة

(*) أحمد الفاتح: هو أحمد بن محمد آل خليفة، دخل آل خليفة بقيادته إلى البحرين وانتصروا في معركة عام ١٧٨٣ على الحامية الفارسية، واستولوا بعدها عليها وحكموها. ويسمى بالفاتح لأنه أول من حكم البحرين من آل خليفة.

هناك...» ويضيف إن الزبارة في «ظل سلطانهم نمت وتطورت كمركز للملاحة البحرية»، وإن هناك عاملاً آخر ساهم في ازدهار الزبارة هو «السيطرة التدريجية التي تطورت إلى ما يشبه الاحتكار الكامل لمصايد اللؤلؤ في كل من شواطئ قطر والبحرين من قبل آل خليفة».

ويقول لوريمر «وفي ١٧٩٠ كان التجار الأجانب يلقون فيها (الزبارة) الحماية الكاملة، ولم تكن بها أيضاً عوائد جمركية».

هذا ولم يخل ازدهار الزبارة من نقمة؛ إذ حاولت قبائل بو شهر وبندر رق والدورق مهاجمة الزبارة وإخضاعها لهم.

وقبل دخول آل خليفة إلى البحرين كان سكانها موزعين بين الهولة، وهم عرب سنة استقروا في بلاد فارس، ثم عادوا إلى الساحل الغربي للخليج، والبحارنة وهم من الشيعة، إضافة إلى أقلية فارسية. وكان سكان البحرين أناساً يمتنون الزراعة وصيد السمك، ولم يكن لهم - فيما بدا - علاقة بالصراعات الدائرة بين القوى المتصارعة هناك.

ويرى كيلى أن تاريخ البحرين على امتداد القرن الثامن عشر كان حافلاً بالاضطرابات، أما عن فترة الحكم البرتغالي، فقد خضعت البحرين لذلك الحكم زهاء قرن ونصف القرن، وقد انتهى حكم البرتغال عام ١٦٠٢، ووفق ما يذكر د. فؤاد الخوري فإن البرتغاليين حكموا إمبراطوريتهم التجارية بحد السيف، ومنعوا التجارة، وحددوا الأسعار، وأجبروا المواطنين على الشراء من مخازنهم وشحن البضائع على سفنهم، وقمعوا الانتفاضات على حكمهم بالبطش والقوة.

أما حاكم هذه الجزيرة في مطلع القرن، فيرى كيلى أنه غير معروف، وربما كانت خاضعة للفرس الذين تمكنوا من طرد

البرتغاليين منها عام ١٦٠٢، أو ربما كان الحكام عرب الإحساء على الطرف المقابل من الأرض. وعام ١٧١٨ استولى الإمام سلطان بن سيف الثاني أحد أئمة اليعاربة على البحرين، لكنه لم يستمر فيها فقد عادت إلى الفرس في عهد نادر شاه، غير أن الحكم الفارسي كان قصيرا وانتقلت السلطة في منتصف القرن إلى عرب الهولة، إلا أن حكم الهولة - وزعيمهم في ذلك الوقت شيخ منطقة عيلوه على الساحل الإيراني - كان لفترة قصيرة أيضا ولم يترك أثرا مهما. ويقول لوريمر في هذا الصدد إن الانقسامات والخلافات الداخلية فيما بينهم كانت قد أنهكتهم عام ١٧٥٣ إلى حد يسر احتلال الجزر لأي دولة أجنبية.

ويرى كيلبي أن حكم الهولة استمر حتى عام ١٧٥٥ عندما قام الشيخ نصر حاكم بوشهر باحتلال الجزيرة، وقد استمر حكم الأخير للبحرين أقل من ثلاثين عاما بتبعية اسمية لفارس. وينتمي الشيخ نصر إلى آل مذكور، وهي قبيلة سنوية يرجع أصلها إلى عرب عمان.

أما عن كيفية دخول آل خليفة إلى البحرين، فالثابت أن معركة دارت بين آل خليفة ونصر بن مذكور، وقد هزم الأخير وحدثت اضطرابات داخلية ومعارك في الجزيرة سهلت دخول آل خليفة إليها.

وفي هذا الصدد يروي محمد التاجر ما حدث بقوله:

«كان للشيخ أحمد بن محمد الخليفة مملوك مقدم عنده وعند أفراد عائلته، يحبه ويعتمد عليه في كثير من مهامه يسمى اسماعيل، وقيل سالم، وكان قد بعثه مع بعض الرجال إلى البحرين لقضاء بعض اللوازم، ولشراء جذوع النخيل، فجاءوا إلى جزيرة سترة ولبثوا أياما في قضاء لوازمهم، فاتفق أن جرى للمملوك ذات يوم مشاجرة مع أهالي سترة. فأدى ذلك الشجار إلى وقوع قتال بين خدم آل خليفة

والأهالي كانت نتيجته قتل المملوك وإساءة عدة من رجاله، ففر بعض أولاده ونعوه لسادته آل خليفة في الزبارة، فغضب الشيخ أحمد الخليفة وشق عليه قتل خادمه وإساءة رجاله، فأرسل بعض إخوته في عدة من الرجال إلى «البحرين» للأخذ بالثأر، واسترجاع المال المنهوب، فركبوا في سفينة وتوجهوا إلى البحرين، وحين وصولهم إلى جزيرة سترة التقوا بغرمائهم، فقتلوا وزير سترة وجملة من الأهالي وانتهبوا ما وصلت أيديهم إليه من الأموال، وقفلوا راجعين إلى الزبارة، ولم يقتل منهم أحد، فعظمت المصيبة على أهالي سترة واستغاثوا بحاكمهم الشيخ نصر آل مذكور». ثم يضيف «لما رأى حاكم البحرين الشيخ نصر آل مذكور ما فعله آل خليفة بستره غضب لهذا الاعتداء، فجعل يستعد لقتال آل خليفة وتأديبهم لجرأتهم على عزه وبلاده، فجمع ما قدر عليه من الرجال وأركبهم السفن، وتولى قيادة الجيش بنفسه ليثير النخوة والحماسة فيهم، وكان ذلك في بداية سنة ١١٩٧ هـ، فلما وصلوا بجموعهم نزلوا بموضع يقال له عشيرق وساروا إلى الزبارة، فلما وصلوها كانت أخبارهم قد سبقت إلى آل خليفة من العيون التي لهم، فاستعدوا لهم، والتقى الجمعان، وكان رئيس جيش الزبارة حاكمها الشيخ أحمد بن محمد الخليفة وأعانه على أهل البحرين أهل فريجه، وهم فخيذة من آل ابن علي، فلم يلبث قوم نصر إلا ساعة من النهار فانكسر نصر وجموعه، وذلك في ١٨ جمادى الثانية سنة ١١٩٧ هـ. ولما انكسر نصر فر إلى البحرين مخذولا، واستأذن حكومة إيران في معاودة غزوهم، وطلب منها المدد والمساعدة، فلم تجبه بشيء لمشاغلها بنفسها عن سواها لما منيت به من الكسيرتين اللتين نالتهما من الدولة العثمانية، كما أسلفنا الإشارة عنهما فيما سبق، فسار بنفسه إلى بوشهر وأقام للمخابرة في بوشهر

مدة طويلة، عدها آل خليفة فرصة كافية لامتلاك البحرين. كانت البحرين بعد خروج نصر منها إلى بوشهر في حالة فوضى خلوها من حاكمها ولما أصابهم من فشل الانكسار، فكانت منقسمة على نفسها حزبين لازالا يتشاجران ويتخاصمان».

ويسترسل الشيخ محمد علي التاجر فيقول: «أحدثت كسرة أهل البحرين في الزيارة أثرا سيئا من الفشل في أهل البحرين، وحالة فوضى وانقسام، وقيل إن الشيخ نصر لما فر من الزيارة كان فراره رأسا إلى بوشهر. ولما رأى أهل البحرين خلوها من حاكمها وكسرتهم المشؤومة بالزيارة، وكأنهم أدركوا ضعف الدولة الإيرانية في ذلك الحين ويئسوا من نجاتها. ولهذه الأسباب انقسمت البلاد إلى حزبين أهل جد حفص، وفيها نائب الحكومة أو وزيرها مدن ورئيسها السيد ماجد، وغاية هذا الحزب هي لا تخرج من أحد الوجهين الآتين؛ إما أن يكون قد طمع في أن يستقل بحكم البلاد عن حكومة إيران المنهزمة، فيخلفه على السلطة لنفسه والحاكم يكون السيد ماجد الجد حفصي، وإما أن يكون هذا الحزب ثابتا على ولاء الحكومة الإيرانية، ويريد أن يحافظ على سلطتها ويمثلها في غيابها لموضع وكالته عنها. وأما الحزب الثاني فهم أهل بلاد القديم، وهؤلاء موقفهم موقف الضد المنافس الحاسد، ورئيس هذا الحزب الشيخ أحمد بن رقية. والعداوة التي بين أهل البلاد وأهل جد حفص لا نعرف أسبابها الأصلية، ولا من أي زمن ابتدأت. ومع أنها إلى اليوم باقية لم تزل والعداوة التي بينهما في أجلى مظاهرها لم تقف عند حد محدود مع رئيسي الحزبين السيد ماجد الجد حفصي والشيخ أحمد بن رقية البلادي هما ابنا خالة وبيئهما قرابة ورحما ملة، فلم يمنعهما ذلك من التحاسد والتباغض والتنافس على الرئاسة، فما زال

يتشاجران هذان الحزبان ويتخاصمان على رئاسة البلاد، حتى آل بهما المآل أن مشى بعضهما إلى الآخر، فتضاربوا بالسيوف وتراشقوا بالنبال، فقتل بينهما من قتل، وانتهى الأمر بالنصر للحزب الجدهفصي على الحزب البلادي، فلم يكن من الحزب الأخير، إلا الانتقام، فانتدب له رسلا وأصحابهم بمكاتيب وجههم إلى آل خليفة بالزبارة يدعوهم للاستيلاء على البحرين، وإنهم سيعاونونهم على ذلك فمضت الرسل إلى ما وجهوا إليه». ويضيف التاجر «جاء رسل البحرين بالمكاتيب يدعون آل خليفة للاستيلاء على البحرين، كما أسلفنا ذلك، وقد كان أهل قطر أشاروا على آل خليفة، ووجهوا أنظارهم باغتنام الفرصة لامتلاك البحرين لخلوها من الرجال وضعف أهلها عن المقاومة؛ وذلك لأن أهل قطر كانوا متضايقين من آل خليفة، فوجهوا أنظارهم إلى الاستيلاء على البحرين، ليتخلصوا من مضايقتهم ومزاحمتهم لهم في بلادهم بهذه الوسيلة، فوفقت مشورتهم وما انضاف إليها من استدعاء أهل البحرين لهم وكسيرة الحاكم الشيخ نصر آل مذكور وخلو البلاد منه، وارتباك أمور دولة العجم، واختلاف كلمة الأهالي وتفاقم الفتن بينهم، وكل ذلك هو في مصلحتهم، ويسهل لهم سبل الاستيلاء عليها بدون عناء، فلما وجدوا أن الفرص سنحت لهم كما قدمنا طمعوا في الاستيلاء عليها... فقوي عزمهم على ذلك وأعدوا عدتهم بقيادة رئيسهم الكبير الشهم الخطير الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة، فشحنوا السفن بالرجال والعدة والذخيرة والمال، وأقلعوا قاصدين البحرين، ولما وصلوها نزلوا، فلم يلقوا مقاومة تذكر وملكوها بكل سهولة بعد أن قتل الأمير مدن الجدهفصي نائب الشيخ نصر آل مذكور وتشتت قومه بين قتيل ومنهزم، واختلف في السيد ماجد الجدهفصي فقتل

وقيل تقحم بفرسه البحر فغرق، وقيل فر إلى إيران، وله نسل بها إلى الآن. وأما ابنه فإنه خرج ليلا في ثياب النساء إلى شيراز ونسله بها. ثم إن الشيخ أحمد الخليفة جمع عائلة الشيخ نصر وحرمة وعياله وخدمه وأركبهم سفينة خاصة ونقلهم إلى بوشهر. وقد أرخ بعضهم استيلاء آل خليفة على البحرين التي هي جزيرة أوال بقوله «أحمد صار في أوال خليفة» عام ١١٩٧ هـ، ولما استقر الشيخ أحمد بن محمد الخليفة حاكما على البحرين ورتب شؤونها على ما أحب، فجعل على المنامة وما والاها أميرا من قبله في قلعة الديوان التي هي من آثار نادر شاه كما تقدم، وعلى المحرق وما والاها أميرا، أما هو وأفراد عائلته فكانوا يقيمون في البحرين صيفا وفي الزبارة شتاء، واتخذ له مكانا أقام فيه القصور العالية. وأحب بعض العائلات الساكنة في الزبارة الانتقال منها إلى البحرين، فأذن لهم بذلك فانتقل منهم عدة سكن غالبهم المحرق وأطراف الأسياف، وهم أصحاب الأعمال البحرية. ولم يزل الشيخ أحمد الخليفة يصيف في البحرين ويشتي في الزبارة إلى أن أفلت شمسها بالبحرين، فدفن في المنامة بالموضع المعروف بالخضر جنوبي المنامة، وذلك عام ١٢٠٩ هـ، فخلفه ابنه الشيخ سلمان».

أما كيلى فيشير إلى كيفية دخول آل خليفة البحرين بقوله: «وفي أعقاب سلسلة من الغزوات التي شنّها على المنطقة الفرس، الذين كانوا يسيطرون على جزر البحرين المجاورة، حل التدهور بالبلاد. ولقد كان حاكم بوشهر الذي يحكم البحرين في الوقت نفسه غير راض عما حققه آل خليفة من إنجازات في الزبارة، وكانت تنشب المنازعات كلما اجتاز آل خليفة البر إلى البحرين، كما كانت الخلافات الدينية عاملا آخر في إشعال نار الخصومات بين الطرفين، إذ إن آل خليفة ينتمون إلى المذهب السني بينما ينتمي أهل البحرين إلى

المذهب الشيعي. وفي عام ١٧٨٢ حدثت واقعة أدت الى مقتل أحد أفراد قبيلة آل خليفة في سترة على الساحل الشرقي للبحرين، مما دفع حكام الزبارة إلى شن حملة عسكرية على المنامة عاصمة البحرين واستنجد البحرينيون الذين دب فيهم الفزع بحاكم المقاطعة الجنوبية لفارس. وقد أصدر هذا الحاكم أوامره إلى الشيخ نصر حاكم بوشهر بتجهيز حملة لاحتلال الزبارة. وفي بداية ١٧٨٣ تحركت قوة مشتركة من الفرس والقواسم، وانقضت على معقل آل خليفة في الزبارة ولكن القوة اصطدمت بمقاومة آل خليفة يعاونهم بعض أفراد قبائل قطر. وبعد أشهر قام آل صباح سكان الكويت وأنساب آل خليفة يؤيدهم بعض عرب قطر بحملة على البلدة، وبعد حصار دام شهرين لقوات الفرس استسلمت حامية المنامة لهم. ومنذ ذلك الوقت غدت البحرين قاعدة لحكم آل خليفة على الرغم من أن الشيخ الحاكم ظل يقيم لعدة سنوات في الزبارة».

ويقول لوريمر: «يمكننا القول بأن التاريخ الحديث للبحرين يبدأ بسنة ١٧٨٢ حين طرد منها الإيرانيون الذين كانت الجزر في حوزتهم. وكان يقود العرب الذين طردوهم شيوخ العتوب، لكن قواتهم كانت مفارز عديدة من مختلف قبائل الجزيرة العربية. كذلك يمكننا القول بأن الصراع في البحرين أثاره اعتداء إيران على الزبارة وهي مستوطنة مزدهرة أقامها العتوب واستقروا فيها بعد هجرتهم من الكويت على ساحل قطر المواجه للبحرين. وكان كريم خان زند قد كلف الشيخ نصر شيخ بوشهر والبحرين بإخضاع الزبارة. ويبدو أنه قام بمحاولة سابقة سنة ١٧٧٧ لتنفيذ هذه التعليمات. وبعد موت كريم خان وفقدان الحكومة الإيرانية قدرتها على العمل وقتا ما، انتقم عرب الزبارة لأنفسهم في سنة ١٧٨٢ على الأرجح — بأن

نزّلوا على جزيرة البحرين، وأوقعوا الهزيمة بالشيخ نصر في ميدان القتال، واستولوا على سفن بوشهر وعادوا بها إلى الزبارة. وقد حدث هجوم مضاد من جانب شيخ بوشهر، يعاونه مؤيدون وأنصار من رأس الخيمة وهرمز، لكن شيوخ العتوب في الزبارة استطاعوا أن يصدوا هذا الهجوم ويوقعوا به هزيمة نكراء، وأرسل الشيخ رسالة يبلغ فيها ابنه الذي تركه مسؤولاً عن البحرين نبأ هزيمة الإيرانيين ويطلب إليه تعزيز مركزه والصمود في موقعه. لكن الرسالة وقعت في قبضة أسطول من ستة زوارق كبيرة أرسلها العتوب من الكويت لنصرة بني جلدتهم في الزبارة، فغير الأسطول وجهته، وأغار على المنامة، وأضرّم فيها النيران، وحاصر الحامية الإيرانية في القلعة ولحق بالعتوب الشماليين هؤلاء في البحرين بقية العتوب في الزبارة والرويس بأسرع ما كانت تسمح به وسائل الانتقال المتوافرة آنذاك. كذلك لحقت بهم فرق أخرى من مختلف قبائل قطر. من بينها آل مسلم من الحويلة، وآل بن علي من الفويرط، وآل سودان من الدوحة، وآل بوعينين من الوكرة والقييسات من خور حسان، وآل سليط من الدوحة، والمناعة من أبو الظلوف، والسادة من داخل قطر. وسرعان ما احتل الغزاة جزر البحرين، واستسلمت الحامية الإيرانية في حصن المنامة بعد حصار دام حوالي الشهرين في ٢٩ يوليو سنة ١٧٨٣، وسمح لأفرادها بالعودة إلى بوشهر».

ومنذ طرد البرتغاليين عام ١٦٠٢ وحتى استلام آل خليفة الحكم عام ١٧٨٣ تناوب على حكم البحرين حكام من خارجها - باستثناء الفترة القصيرة لحكم الهولة - ولعل في هذه الحقيقة دلالة واضحة على أن سكان الجزيرة الموجودين قبل دخول آل خليفة لم تكن لديهم طموحات

حكم.. وعلى أي حال فإن الحصول على أي قدر من السلطة في الخليج في تلك المرحلة كان يحتاج إلى أمر أساسي، وهو وجود قوة بحرية قادرة على التعامل مع القوى المتناثرة هنا وهناك، والثابت أن سكان البحرين لم يكونوا قوة بحرية، بل إنهم فيما يبدو لم يكونوا طرفاً في أي قوة بحرية في المنطقة.

وفي الثلاثين سنة الأولى من حكم آل خليفة حققت البحرين تقدماً سريعاً في النواحي التجارية، وكان مقدرًا لها، كما يقول كيلى، أن تنتزع من مسقط أهميتها كمرفأ تجاري في الخليج. ويرى كيلى أن الفضل في ذلك يعود إلى مهارة ونشاط آل خليفة الذين برزت قدراتهم إلى حد كبير في الكويت أولاً، ثم في الزبارة كملاحين وتجار في الوقت نفسه.

ويقول لوريمر إن احتلال العتوب للبحرين أدى إلى تنشيط التجارة في هذه الجزر، لأن المهاجرين العرب سرعان ما أصبح لهم أسطول تجاري وأصبحوا هم الذين يقومون بعملية نقل البضائع ما بين مسقط التي كانت في ذلك الوقت القاعدة التجارية المحلية الرئيسية والبصرة وغيرها من الساحل الغربي للخليج. وكانت مصالح التجار تلقى من جانبهم الرعاية الكاملة. وكان أهل البحرين عندئذ يسيطرون سيطرة شبه كاملة على تجارة اللؤلؤ في الخليج، وكانت وارداتهم من الهند، التي قدرت في ذلك الوقت بحوالي «١٠ لكات» من الروبيات كل عام، يدفع معظم قيمتها باللؤلؤ من سوق مسقط.

ومنذ بداية حكم آل خليفة تعرضت البحرين للعديد من محاولات الغزو الخارجي، كما تعرضت لمؤامرات من قبل بعض القوى القائمة في المنطقة. ولا نرى فائدة -في إطار هذا البحث- من التعرض بتفصيل لمحاولات السيطرة على البحرين من قبل تلك القوى، غاية ما

في الأمر أنه من أجل التعرف إلى طبيعة مؤسسة الحكم، والعوامل المؤثرة في صناعة القرار في تلك المؤسسة، يجب إدراك أن هاجس الخطر الخارجي كان قائما لدى آل خليفة منذ دخولهم البحرين. ومن الطبيعي جدا أن تترك هموم الخطر الخارجي بصماتها على التوجهات العامة، أيا كان مصدر ذلك الخطر ووسائله. وسنجد أن تعامل آل خليفة مع الأحداث المحلية لاحقا متأثر جدا بهم الخطر الخارجي. ومن أجل تكوين فكرة عن درجة تأثير الأخطار الخارجية، التي تشكل جزءا كبيرا من تجربة الحكم لدى آل خليفة، فإنه يجدر استعراض تلك الأخطار وفق تسلسلها الزمني.

كانت البحرين محط أنظار جميع القوى السياسية في المنطقة، ويقول د.صلاح العقاد «تعرض آل خليفة أثناء حكمهم للبحرين لأطماع جميع الدول المجاورة، ولذا لجأوا أحيانا إلى استرضاء هذه الدول بدفع الإتاوات، كما أنهم استعانوا ببعضها على بعض في أحيان أخرى». ويضيف إنه «وسط هذه الأخطار المحدقة من كل جانب تمكن آل خليفة من المحافظة على ملكهم متخذين سبيل الدهاء أحيانا، وإعلان التبعية لهذه الدولة أو تلك مقابل مبلغ من المال أحيانا أخرى، لكنهم كانوا عاجزين في معظم الاحيان عن استخدام القوة المسلحة».

أما د.فؤاد الخوري فيقول إن مايشير العجب أن أحدا لم يتمكن من آل خليفة، وظلوا مسيطرين على البحرين عن طريق تأليب أعدائهم ضد بعضهم بعضا، أو عن طريق الدفاع المباشر، مستعملين في ذلك السيف حيث يقطع، والدهاء حيث ينفع.

وقد جاء أول تهديد خارجي لزعامه آل خليفة من قبل الشيوخ العرب التابعين لإيران، حين كانت الاستعدادات جارية على قدم وساق أواخر عام ١٧٨٣ لشن حملة كبيرة على الزبارة بالذات، إلا أن

هذه الحملة لم تشن .

وعام ١٧٩٩ أعلن سلطان مسقط الحرب على آل خليفة في البحرين وكان يهدف إلى احتلال الجزر، إلا أن آل خليفة استطاعوا، بأسلوب سياسي، تحاشي الدخول في تلك الحرب، وظلت لهم السيادة على البحرين، إلا أنه عام ١٨٠٠ قام سلطان مسقط بغزو البحرين ونجح هذه المرة في فرض سيطرته، إلا أنه عام ١٨٠١ تمكن آل خليفة من إجبار قوات السلطان على الجلاء عن البحرين. وعام ١٨٠٢ عاود سلطان مسقط الكرة إلا أنه خوفا من تدخل الدولة السعودية تراجع. وقد تشكل بعد ذلك نوع من الحلف بين آل خليفة والدولة السعودية. وعام ١٨١٠ كان في البحرين وكيل لها. ثم زال نفوذ الدولة السعودية بعد أن تحالف آل خليفة مع سلطان مسقط. وعام ١٨١٢ قام السيد سعيد بشن هجوم على البحرين. ولكن دوام الحال من المحال، ففي عام ١٨١٦ عاود السيد سعيد مهاجمة البحرين لكنه مني بهزيمة ماحقة.

ولم تكن أطماع العمانيين وحدها مصدر الخطر على حكم آل خليفة، بل إن الإنجليز كانوا يبحثون عن جزيرة على الساحل الشرقي للخليج لإقامة قاعدة لهم، وكانوا يحيكون مؤامرة يتم بموجبها تسهيل استيلاء فارس على البحرين، مقابل حصول الإنجليز على الجزيرة المطلوبة والتي تقع ضمن سيطرة الدولة الفارسية. وقد انشغل آل خليفة بتفكيك هذه المؤامرة، وكان ذلك قبل عام ١٨١٢ وفي هذا العام شن ارحمة بن جابر* عدة هجمات

(*) ارحمة بن جابر: ورث زعامة الجلاهمة عن أبيه جابر العتيبي. والجلاهمة فرع من العتوب قاموا بدور مهم في فتح البحرين ومساعدة آل خليفة، لكنه لم يقنع بالمكافآت التي قدمها آل خليفة له ولقومه، فقرر مغادرة البحرين وراح يحالف كل طامع فيها، فمن اتصال بسلطان نجد إلى سلطان مسقط إلى العثمانيين ثم الفرس. مات وهو يقاتل آل خليفة في معركة بحرية يقال إنه فجر نفسه بالسفينة التي كان يقودها عندما استيقن من هزيمته. وصفه لوريمر بأنه قاطع طريق وشخصية غريبة إلى أبعد حدود الغرابة، أما ويلسون في كتابه «الخليج العربي» فقال عن شخصيته: «إنها أقيح قرصان عرفته البحار على الإطلاق».

على سفن آل خليفة. وعام ١٨٢٠ سعى آل خليفة إلى الانضمام لمعاهدة السلم العامة، وتم لهم ذلك.

وعام ١٨٢٢ بعد أن توقف آل خليفة عن دفع الجزية لسلطان مسقط بادر الأخير بالإعداد لحملة عسكرية لغزو البحرين. وعام ١٨٢٨ ترددت شائعات عن هجوم وشيك على البحرين من إيران وحاكم مسقط وشيخ القواسم. وعام ١٨٢٦ انشغل آل خليفة بمحاصرة الدمام في محاولة للقضاء على الهجمات التي كان يشنها ارحمة بن جابر.

ويأتي عام ١٨٢٨ ليشهد آخر محاولات السيد سعيد سلطان مسقط لاحتلال البحرين، فقد تحالف مع شيخ دبي وقام بمحاصرة المنامة وقصفها بالمدفعية، ونفذ هجوما على المنامة وستره، إلا أن آل خليفة تمكنوا من إلحاق هزيمة منكرة بالمهاجمين. وبعد هذه الهزيمة توقفت أطماع العمانيين في البحرين. وعام ١٨٣٩ تعرضت البحرين لتهديدات خورشيد باشا، فبذل آل خليفة مناورات سياسية متعددة مع خورشيد باشا من جهة، ومع الإنجليز من جهة أخرى وتمكنوا من الاحتفاظ باستقلاليتهم.

ثم انشغل آل خليفة بعد ذلك بالكثير من الصراعات الأسرية التي أثرت كثيرا في خلخلة الاستقرار السياسي، الذي لم تظهر ملامحه إلا مع تولي الشيخ عيسى بن علي الحكم عام ١٨٦٩.

ولم تكن أخطار الغزو الخارجي والمؤامرات هي التي كتب على آل خليفة مواجهتها، بل إنه عام ١٨٢١ وفقا لكيلي حصد مرض الكوليرا ٤٠٠٠ شخص، كما انتشر مرض الطاعون في الجزيرة بين عامي ١٨٣١ و ١٨٣٢.

هذا ولم تعرف البحرين الاستقرار السياسي الخارجي إلا بعد أن وضحت معالم السياسة البريطانية تجاهها، وإن كان هذا الامر لم يوقف

الادعاءات والمطالبات والمؤامرات الإيرانية بالجزيرة بين وقت وآخر.

إن العرض الموجز السابق يكون فكرة مبسطة عن الأخطار الخارجية التي انشغل آل خليفة في درئها عن بلادهم. ومما لا شك فيه أن نجاح آل خليفة في الحفاظ على حكمهم طوال تلك السنوات - برغم عدم تمتعهم بقوة عسكرية - إنما هو دليل على كفاءة عالية ومهارة سياسية بالغة، ولا يمكن لأي منصف ومتابع لتاريخ البحرين أن يغفل هذه الحقيقة، وحقيقة أخرى مفادها إن فترة الصراعات، سواء الخارجية أو الداخلية، تركزت بصمات واضحة على مؤسسة الحكم، تلك البصمات التي تنتقل من جيل إلى آخر، لتشكل مجموعة التجارب التي تصنع فكر مؤسسة الحكم.

وبالطبع فإن البحث في أي زاوية من زوايا تاريخ البحرين، منذ بداية حكم آل خليفة، لا يكتمل إلا بتقصي الدور الذي لعبته بريطانيا، فسواء كان مجال البحث التطور الخدماتي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي بشقيه المحلي والخارجي، فلا بد من التفتيش في الأوراق البريطانية، فقد لعب الإنجليز أدواراً عديدة في تاريخ الخليج.. إلا أن تسلسل الأحداث وتطورها يدفع إلى تقسيم السياسة البريطانية تجاه البحرين إلى قسمين: الأول يتناول الفترة التي لم تكن سياسة بريطانيا فيها واضحة ومحددة تجاه البحرين، والتي تأرجحت بين الاستعداد للسيطرة على البحرين أو دعم حكم آل خليفة أو تسهيل استيلاء القوى الأخرى عليها كالعمانيين والفرس، وهي الفترة التي تبدأ من عام ١٨١٩. أما القسم الثاني فتبدأ أحداثه عام ١٨٦٩ حين قررت بريطانيا التدخل المباشر في شؤون البحرين.. ومنذ ذلك العام بدأ تاريخ جديد يتشكل في البحرين حيث بدأت خطى علاقتها مع بريطانيا تتسارع، وبدأ التدخل

البريطاني يتشعب في كافة نواحي الحياة.
وبالطبع فهناك العديد من الوثائق والدراسات والكتب التي
تخصصت في متابعة تفاصيل العلاقات البريطانية البحرينية، وهذا
البحث ليس من بينها، إلا أننا سنعمد إلى تتبع التأثير البريطاني في
القضايا التي يركز عليها هذا البحث في الموضوع المناسب.

«إن البحرين ملك ورثناه عن أجدادنا، وليس بيننا شروط لأن نكون رعية الإنجليز، ولم أظهر أي سبب لذلك غير الصداقة، وليس للإنجليز أن يتعدوا علينا، فإذا كنتم تشرعون في حرب القوة والافتدار فإننا سنبدل كل ما في وسعنا في سبيل ملكنا وأهلنا وعيالنا وديننا، وليحصل بعد ذلك ما يحصل».

الشيخ عبدالله بن أحمد الخليفة

عام ١٨٣٥